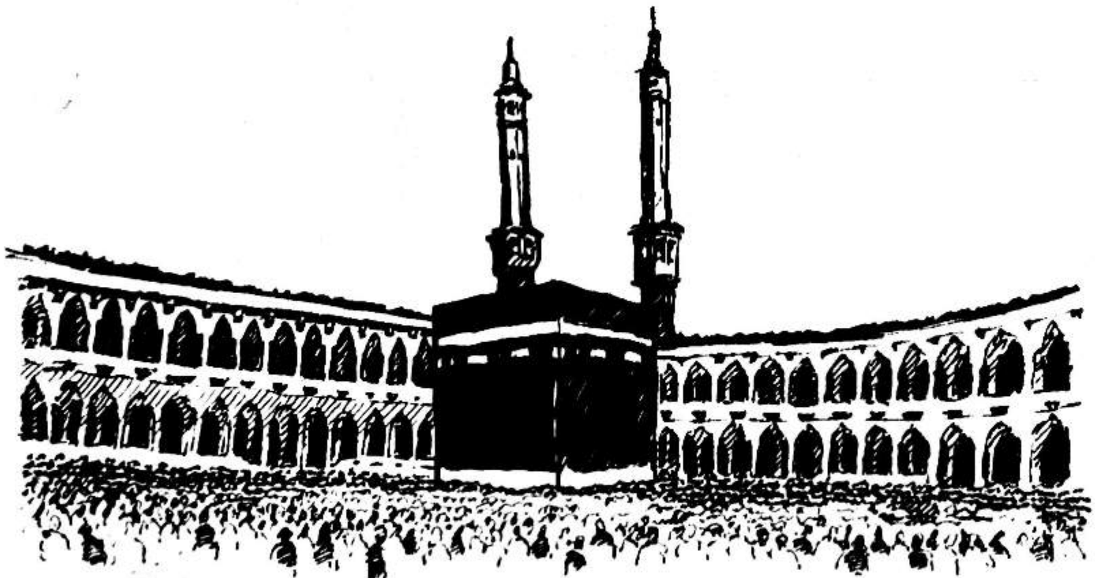
د. عبد الله الطارقي

شَدْهَة

النظـــرة الأولى

رصد لمشاعر الرحالة عند رؤية الكعبة في المرة الأولى



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الطارقي , عبدالله سيدي محمد
شدهة النظرة الاولى رصد لمشاعر الرحالة عند رؤية الكعبة في المرة الأولى .
/عبدالله سيدي محمد الطارقي – مكة المكرمة ,١٤٣٦هـ
١٠٠ص ٤..سم
ردمك . ٣-٢-٩٠٧٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١-المسجد الحرام ٢-الكعبة أ.العنوان
ديوي ٢١٥,١ ١٤٣٦/٩٤٤٩

رقم الإيداع :١٤٣٦/٩٤٤٩
ردمك : ٣-٢-٩٠٧٠٠-٦٠٣-٩٧٨

شدهة النظرة الاولى رصد لمشاعر الرحالة عند رؤية الكعبة في المرة الأولى

عبدالله الطارقي Tarqi2007@gmail.com

الطبعة الاولى ١٤٣٦هـ

نشر وتوزيع: دار كنوز المعرفة – جدة – المملكة العربية السعودية
هاتف :00966126514222 , فاكس :00966126516593,البريد إلكتروني:info@konoozb.com
تصميم الغلاف:
حسين الطارقي :المملكة العربية السعودية ,مكة المكرمة h.altarqy@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات:



وشعور المسلم حين يصل إلى باب المسجد الحرام، وتبدو له الكعبة لأول مرة لايمكن أن يصفه قلم كاتب، ولا لسان أديب.

علي الطنطاوي



النّظرة الأولى لكل مبهرٍ وعظيمٍ لها وقع على نفس الناظر، لكن الشّدْهةَ في لحظةِ وقوع العينِ على البيت العتيق تفوق كل شدْهة.

لأنها شدْهة تجمع المفاجأةَ.. والهيبةَ.. والجلالَ.. والعظمةَ.. والتأثيرَ البالغ على نفس صاحبها لدرجة تخرس معها لغة الكلام.. وتتسمر على صورتها العينان.. فلا تطرف وهي تعي.. أو تَنْبس بكلمةٍ تشفي!

ولهذا عمد الرَّحالةُ من العلماءِ والأدباءِ والصالحينَ إلى تسطيرِ تلك المواقف، في كتابتهم لرحلاتهم ووصفهم لما وقع لهم فيها.

وكثيرًا ما تكونُ لحظةَ رؤيتهم للكعبةِ حدثًا محوريًا ولحظةً فارقةً، يقفون عندها، فلا يتجاوزها رحّالةٌ مسلمٌ أو غيرَ مسلمٍ إلا وسطّر شدْهته تلك.. ووصفها بكلماتٍ يجزم هو أنها بعض ما وجد لا كلّه.. وأنه شيء مما أحس به لا جُلّه.

وإني هنا في هذه الورقات أقطف لك شيئًا من تلك اللحظاتِ.. التقطها سراعًا من دووواينهم، باجتزاءٍ مقتطف.

وكنت قد جمعت هذه المقتطفات منذ ١٤٣٠هـ ولم يكتب الله تعالى لها الظهور ذلك الوقت.

بقي أن أخبر القارئ الكريم أنّه: بحكم تشرفي بسكنى مكة المكرمة منذ نعومة أظفاري؛ لم يكن غريبًا أنْ أرى هذه الشَّدْهةَ التي أرصدها هنا مستطيرةً على تقاسيم وجوه الحجاج في ساحةِ الكعبةِ المشرفةِ عند رؤيتهم لها للمرة الأولى!

وكلُ مكيٍ تردد على الحرم المكيّ زمن الحجِ ربما عَلق بذاكرته مواقف رآهم فيها، وسمعهم وهم يَضِجُّون بالبكاءِ لحظةَ رؤيتهم للبيتِ العتيق.

إنَّ إجهاشَ الحُجَّاجِ بالبكاء لرؤية الكعبةِ ربّما لأنَّ المعنى الذي يدور بصدورهم لايعبر عنه إلا الدمعُ المدرار.. إذ كيف يحمل الحرفُ ما يلذّ به الفؤاد.

وقبل أن أخلي بين القارئ الكريم، وأخبار أصحاب الشّدْهة، أود الإشارة إلى أنّ في مقدساتنا الإسلامية ذخيرةً نفسيّةً؛ جديرة بأن يتصدى

النفسانيون بدراستها، وأن يعملوها في مشاريع العلاج النّفسي، والتوجيه والإرشاد النّفسي والتربوي، حتى نفيد من هذه الذخيرة الباذخة عبر القرون، ونستثمر هذا الإعجاز الذي شهد به الموالف والمخالف، وأثبته الحاضر والسالف[١].

وهذا أوان الشروع في المقصود، واستعين بالله المعبود، هذا وسميته:

شَدْهَة النظرةِ الأولى!

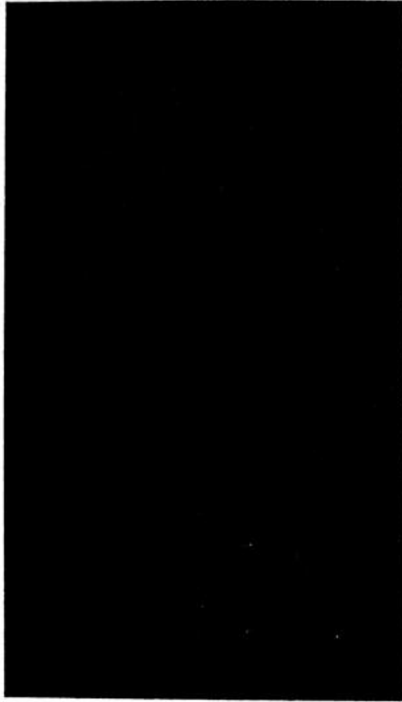
والله أسال أن يكتب أجرها لي ولوالدي وأهلي أجمعين، ولا أنسى أن أشكر كل من قدم نصحًا حول مادتها أو أسهم في نشرها وأخص بالذكر أخي الشيخ عبد الكريم بن حسن الحازمي المحاضر بجامعة الملك عبد العزيز لإسهامه في نشر هذه الشدهة.

وبالله التوفيق،،

د.عبد الله الطارقي

عفر الله له ولوالديه وأهله وللمسلمين

Tarqi2007@gmail.com



ذلك الإحساس بالنداء الحقيقي للحج، النداء الذي لا يقاوم، كي يلبي بقوّة لا تقهر، إن في الشتاء، وإن في الصيف (لبيك) أنا لك، إلهي.

مالك بن نبي



إنّ العناية بمكة المكرمة من حيث أحكامُها وخصائصُها وآياتُها البينات عملٌ جليلٌ تولى تحريره وتحبيره العلماء من المتقدمين والمتأخرين؛ حتى قيل: **إنه لم يكتب عن مدينة كما كُتب عن مكة المكرمة** فتارةً تُرصد حياتُها الاجتماعية، وتارةً توصف الطرقُ المؤدية إليها وتاراتٍ وتارت في تحبير أخبارها وتحرير أحداثها.

ومن تلك المؤلفات ماسطره الرّحالة ممن وفد إليها من الأعماق والآفاق.

حتى أسهموا في إثراء ما يعرف بأدب الرحلة؛ إذ يحرص الرّحالة إلى أم القرى؛ على الكشف عن مشاعره وعظيم شوقه وفرط تعلقه، لامجرد الاكتفاء بالوصف لما يرى أو رسم صورة المكان للقارئ.

فهم قد جابوا البلاد وركبوا المخاطر والأهوال من أجل رَي غُلّة النفسِ من البيت العتيق، وأداءِ الواجب العبادي الذي ارتبط بمكة شرفها

الله تعالى، حتى بلغ الأمرُ إلى أن كتب الغربيون من غير المسلمين ذكرياتهم وأخبارَهم وما انطبع في نفوسهم إبَّان دخولهم لمكة ورؤيتهم لكعبتها المشرفة!

إن جحافلَ أولئك الرّحالة جاءت تتهادى عبر فجاج الأرض لاهثة وراء الاستجابة للنداء الخالد.

{وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: ٢٧]

وفي الحديث: **لما فرغ إبراهيم عليه السلامُ من بناء البيت، أمره الله عزّ وجلّ أن يناديَ في الحجِّ، فقام على المقام فقال: يا أيها الناس، إن ربَّكم قد بنى بيتًا فحجُّوه، وأجيبوا الله عزّ وجلّ. فأجابوه في أصلاب الرجال وأرحام النساء: أجبناك، أجبناك، أجبناك، اللهم لبيك. قال: فكل من حجَّ اليوم؛ فهو ممَّن أجاب إبراهيم على قدر ما لبّى**"[٢].

ولأجل تلبية ذلك النّداء: "ليس أحدٌ من أهل الإسلام إلاَّ وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف والحجّ، والنَّاس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار"[٣].

"وهكذا سنة الله منذ انبجس النّداءُ العجيبُ داخل أعماق النفوس، ليؤثر .. فيستجيب الذين هم في أقاصي البلاد المسلمة .. (لبيك، لبيك) ..

ذلك الإحساس بالنداءِ الحقيقي للحج، النداءُ الذي لا يُقاوَم، كي يلبي بقوّة لا تقهر، إن في الشتاء، وإن في الصيف (لبيك) أنا لك، إلهي (٤).



ليس أحدٌ من أهل الإسلام
إلاّ وهو يحن إلى رؤية الكعبـــة
والطواف والحجّ!

الحافظ ابن كثير



رحلاتٌ مُضنية، وأسفار مُجهدة، تمتد لأشهر أو سنين يركب فيها أهولاً، ويرى من الشرور أحولاً، ويتعرض لركوب دروب ومهامه، الظن كل الظن أن سالكها لا ينجو..!

فَلِمَ كل هذا الإصرار، وركوب تلك الأخطار..؟؟

ربما الجواب الحاضر : أنّ ما يطلبه الرّحالة من ربه يحدوه لاقتحام كل عقبة.. ومغالبة كل معضلة..!

وكيف لا يركبون الأخطار وهم سينالون بمجرد الرحلة وسامًا يخلعه عليهم الملك الأكرم؛ الله تعالى فيسميهم: (**وفد الله**)..

إنها نسبة تستحق المخاطرة بالنّفس والمال والأهل والولد.. أن تسير مسيرًا ينسبك الله فيه إلى نفسه.

قال صلى الله عليه وسلم: **الحجاج والعمار وَفْدُ الله دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم**(٥).

وإنّ من منح تلك الرحلة عطية كبرى تحملهم على أنْ لا ينقطع ركبهم، ولا يملوا ولو تضاعفت مخاطر مسيرهم..

إنها تحصيل ما أودع الله تعالى هذا البيت العتيق من عطية الهُدى؛ **قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ}** [آل عمران: ٩٦].

قال ابن القيم عن وصف الله تعالى بيته العتيق بأنّه هدى: **(وصفه بالمصدر نفسه مبالغةً حتى كأنه هو نفس الهدى)**(٦).

إنهم ركبوا تلك الأهوال وهم يؤملون أن تُغفر ذنوبهم، ويُغسل ما لحق بصحائفهم من تكدير ذنب في خلوة أو جلوة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما(٧). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من حجّ فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"(٨).

وقال صلى الله عليه وسلم عن طائف البيت العتيق بأنّه:

"لاَ يَضَعُ قَدَمًا، وَلاَ يَرْفَعُ أُخْرَى، إِلاَّ حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطِيئَةً، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةً" (٩).

وهذا ابن القيم يصف ذلك الإقبال على البيت والتعرض للأهوال من أجل حجه والوفود على رب العالمين في باحة كعبته: "فلله كم لها من قتيل وسليبٍ وجريحٍ؟! وكم أُنفق في حبها من الأموال والأرواح؟!

ورضي المحب بمفارقة فِلَذ الأكباد والأهل، والأحباب والأوطان، مقدِّمًا بين يديه أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطِف والمشاق، وهو يستلذ ذلك كلّه، ويَستطِيبه، ويراه - لو ظهر سلطان المحبة في قلبه - أطيبَ من نِعَمِ المتحلية، وترفهم ولذاهم، وليس مُحبًّا من يَعُدُّ شقاءه عذابًا إذا ما كان يرضي حبيبَه، وهذا كله سرُّ إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله: **{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}** [الحج: ٢٦].

فاقتضت هذه الإضافة الخاصَّة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته)(١٠).

ثم إنّ الرّحالة إلى البيت العتيق يقتحمون تلك الأهوال والمفاوز؛ لأنهم موعودون بأن تكون جائزة المخاطرة بروحه، وتضحيته بماله، واغترابه عن أهله وولده أمَّ العطايا ومنتهى الآمال: "الجنة"..

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنّة"(١١).

وينضاف إلى ذلك تحصيل ثمارٍ أخرى مثل: تحقيق الاجتماع للأمة المسلمة في أرقى صوره، وتحقيق مصالح ومنافع تتجاوز الفرد إلى الجماعة إلى الأمة، بل تتجاوز إلى آثارٍ كونية للبشرية كلها؛ ولم لا؟ وهي التي جُعل وجودها "**للناس**" وجعل هداها "**للعالمين**" فالبيت الحرام قوام البشرية؛ وتقاطر الجموع إليه إعمار له. وإعمار البيتِ شعيرةٌ إهمالها يُؤذِن بقيامِ القيامةِ، وخرابِ العالم. كما صَحّت بذلك الأخبار(١٢).



أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً
بوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ
وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

بلال رضي الله عنه

المشتاقون الأوائل

قال ابن ماجه حدثنا محمد بن يحيى حدثنا عبد الرزاق قال سمعت المثنى بن الصباح يقول حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال طفت مع عبد الله بن عمرو فلما فرغنا من السبع ركعنا في دبر الكعبة فقلت ألا نتعوذ بالله من النار قال أعوذ بالله من النار قال ثم مضى فاستلم الركن ثم قام بين الحجر والباب فألصق صدره ويديه وخده إليه ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل(١٣).

ذاك صنيع المحبين للكعبة يلثموها ويلزقون بها أبشارهم اقتداءً بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

في تلك المواضع تُسكب العبرات، وتُرفع الدعوات، لم لا والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم دخل ساح البيت الحرام متخشعًا واضعًا

رأسه كما يقول أهل السير والأخبار تواضعًا لله تعالى على ما حباه من الفتح[١٤].

إن مشاعر الحب، والاشتياق للبيت الحرام، هدي نبوي، أليس هو الذي نظر إلى معشوقته هذه حين أخرجوه وقال فيها حروفه الخالدة:

واللَّهِ، إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ[١٥].

ولهذا اشتاق للبلدة أصحابه أول أيام هجرتهم للمدينة فقال بلال رضي الله عنه كلماته المشهودة:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً
بوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ
وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ[١٦]

إنها ليست دَهشة وشَدهة يتيمة بل هي امتداد لسلسلة الشدهات التي ابتدأت يوم أن قدم إبراهيم عليه السلام إلى هذه الأرض الجرداء، من أرض الخمائل وأشجار الزيتون إلى واد غير ذي زرع كما قال الله تعالى:

{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم:٣٧].

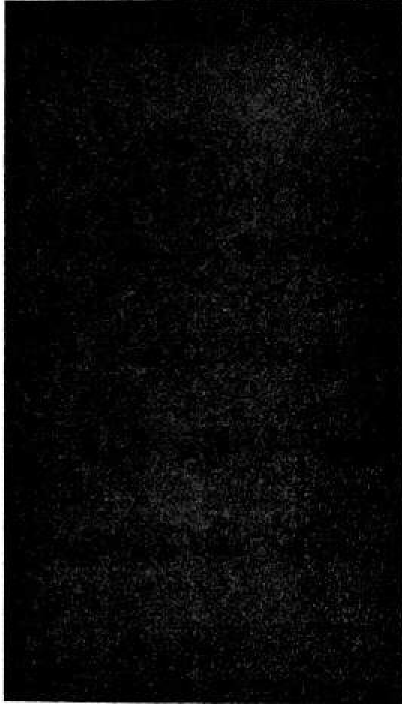
تلتها شدهات هاجر التي بدأت بالحدث العظيم: حيث تركها زوجها في هذا الواد القفر ومعها وليدها إسماعيل عليه السلام، ثم شدهتها بالماء الذي أنبعه الله تعالى لها ولوليدها وللخليقة على مر الدهور.

ثم شدهة الجميع التي تبقى تشده الواردين، وتلهب مشاعر المشتاقين، حين يرفع إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بناء الكعبة المشرفة.

تلك الكعبة التي يؤمر إبراهيم عليه السلام بعد ذلك أن يؤذن في الناس ليفدو إليها {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج:٢٧]، ومن يومها أنفذ الله صوت إبراهيم عليه السلام أصلاب الرجال وأرحام النساء(١٧).. فبدأت جحافل المشتاقين تتقاطر على هذه الكعبة، تشدهم نحوها، لتشدههم بجلالها وجمالها ودلالتها على الله العظيم سبحانه.

ولاريب أن النبيون قدموا للبيت قبل إبراهيم عليه السلام وبعده إذ: "**ما من نبي إلا وقد حج هذا البيت**" ويشهد لهذا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم متحدثًا عن مسجد الخيف:

"**صَلّى فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ سَبْعُونَ نَبِيًّا ، مِنْهُمْ مُوسَى، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ عباءتانِ قَطْوانِيّتانِ، وَهُوَ مُحْرِمٌ عَلَى بَعِيرٍ مِنْ إِبِلِ شَنُوءةَ، مَخْطُومٍ بِخِطَامِ لِيفٍ لَهُ ضَفْرَانِ**"(١٨)



حين أشرفنا على الكعبة الشريفة.. رأينا ما يدهش الناظر.. ويحير الفكر والخاطر.

القلصادي



من هناك من كل بقعة.. من وراء كل تلٍ ووهدة..

من خلف هاتيك الجبال.. من على البعد.. تهفو نفوس كثيرة إلى أن تكتحل العين بالرؤية الحلم؛ رؤية الكعبة المشرفة..!

وهكذا تمادى الركب بأبي الحسن علي بن محمد القرشي القلصادي الأندلسي.. العالم الحَبر الذي لم يمنعِ البَحر أشواقه أن تحمله على تحمّل مشاق الأسفار.. وركوب الأخطار.. للوصول إلى حيث تسكب العبرات.. مكة المكرمة.

فسار في رحلته في أواخر القرن التاسع الهجري من المغرب.. قاصدًا بيت الله الحرام. وبالتحديد في سنة ٨٥١ للهجرة النبوية.

وقد ملأ رحلته بالمشاهدات وحكايةِ تدريسه بمكة وتسجيلِ مواقفه مع العلماءِ الذين لقيهم وأخذ عنهم ونقل وروى.

مع أنّ الرّحالة العالم القلصادي كان رياضيًا فذًا ترك العديد من المؤلفات في الحساب والمنطق لكن حساب المسافة بين سبتة إلى مكة لم يدر بخلده أن يكون عائقًا يمنعه، أوحائلاً دون الدخول في الوفد السائر إليها حيث وفد مع الركب المصري من وجهة سيناء إلى مكة فلما دنا واقترب..

حتى وقف بحيث تبدو له الكعبة وبناءها الشامخ

قال:

حين أشرفنا على الكعبةِ الشريفة.. رأينا ما يدهش الناظر.. ويحير الفكر والخاطر.. بما خصها تعالى به من الهيبة والتعظيم.. فطفنا بها سبعاً.. وصلينا الركعتين..في مستقرِّ الأمن والأمان : مقامِ أبينا إبراهيم عليه السلام..

ثم خرجنا من بابِ الصفا إلى الصفا .. وسعينا سبعاً وقد تمت العمرةُ بالحلاق...

فذهب عنا تعب السفر.. بتحصيل البُغْية والظَّفــر.. (١٩)

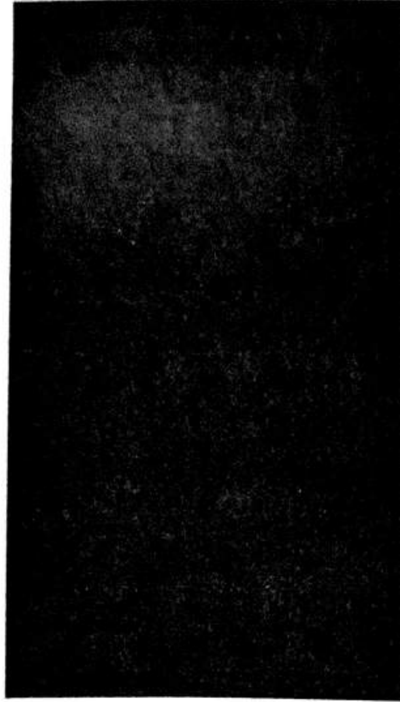
وهكذا يصنع جلال الكعبة حين يهجم هيبته وجلاله على نفوس المشتاقين إذا وردوا حياضها..

تملأ قلوبهم بجلالها.. وتحدث فيها إجلالاً للعظيم سبحانه..

وتتسلل بعذب سحرها لنفوسهم فتسُرها.. تُبهجها.. تُفرحها.. وتحملها إلى أن تلفظ بالإيمان بالله طواعية.. لتثبت العبودية لله اختيارًا كما ثبتت له اضطرارًا..

بل حتى أجسادهم.. يأتيها جلال البيت فيسلّ منها الجَهد.. ويُذهب عنها الكَبد.. ويحصنها من وعثاء النصب.. وآثار التعب.. إنها.. الكعبة: تعطي لروح الناظر لها خفة غير معتادة.. و سرورًا غير مألوفٍ!! وروحانيةً لا يستطيع اللسان وصفها .. ولا الحرف التعبير عنها!!

فيا لسعادة من سعد برؤيتها هناك..



فتلقانا أهـــل مكـــة وأطفالهـــا متعلقين بالناس، ليعلموهم المناسك، ويهـــدوهم المســـالك، قـــد دُرِّب صبيانهم على ذلك، وحفظوا مـــن الأدعية ما يحسن هنالك!

ابن رشيد الفهري



"مَلءُ العَيْبة بما جُمع بطول الغَيْبة في الوجْهَة الوجِيهة إلى الحرمين مكةَ وطيبة"

ذلك هو عنوان رحلة أبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي.. إذ دخل مكة سنة ٦٨٤ للهجرة النبوية..

وقد امتلأت رحلته بالأوصاف والأخبار، والتعريف بمن لقي من الرجال والأعلام، وما نقل عنهم من المعارف والأشعار.

فكانت رحلة ثرية ظلت مرجعًا لكثير من الرحالة الذي جاؤوا بعده.

والتي يقول فيها واصفًا لحظة دخوله مكة ومشارفته على دخول البيت الحرام:

فوافينا مكة شرفها الله تعالى ضحاء يوم السبت، حامدين الله تعالى على المسير، وتيسير العسير.

فتلقانا أهلُ مكة وأطفالها متعلقين بالنّاس، ليعلموهم المناسك، ويهدوهم المسالك، قد دُرب صبيانهم على ذلك، وحفظوا من الأدعية ما يحسن هنالك!

وعندما عاينا البلد الأمين نشأت السحائب، وأرسلت الغرابي وأرخت الذّوائب. فما وافينا المسجدَ الحرام شرّفه الله إلا والمطر جُود أو وابل، وكل طائفٍ تحت ميزاب الرحمةِ من جُود ذلك الجود نائل، وإلى أقصى أمله واصل.

وحين تجلّت لنا الكعبة كالعروس، نالت منها النّفوس، وقد أَحرمت الكعبةُ بتجريدها من المخيط، إلى حد الحجر الأسود وبقي ما سواه بها محيط، ولله در القائل:

يارِبةَ الخَال التي بِلحاقِها

نَالَ المُنى مَن كان مِن عُشّاقِها

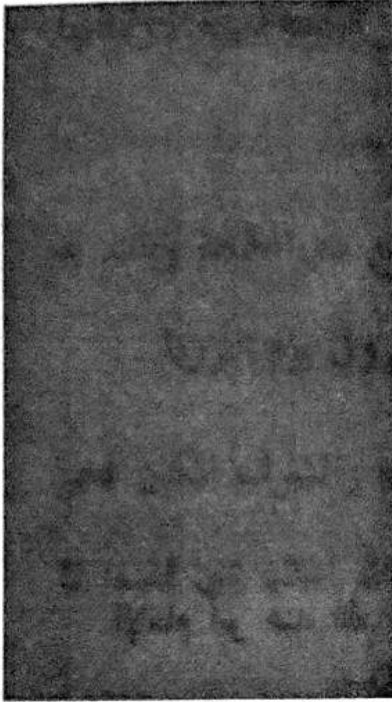
عاينا من بهجتها ما يذكر قول الآخر:

ما عُلق الحُلي على صَدرها

إلا لما يُخشى من العَيْـــنِ

نقول، والحُليُ على نَحْرِها

من علّق الشَّيْنَ من الزّينِ[٢٠]



دخلت إلى البلد الأمين مقر المجد الصميم والشرف المكين فخر بقاع الأرض كلها على مر السنين فأقسم بالله أعظم يمين قسماً لا يكذب ولا يمين ما حرم سـكناه إلا ذو حـظ غبين!

العَبدري البَلنسي

العَبدري البَلنسي

الإمام أبو عبد الله محمد العبدري البَلنسي الحاحائي الأديب النّاقد، والعالم النحرير والشاعر الفَحل.. تملك هذا العالم ناصية التحبير والبيان، في وصف ما يختلج بنفس كل من عاين هذا البيت العتيق بلسان عربي مبين..

حتى لم يجد الرّحالة الشهير ابن بطوطة بُدًّا من نقل بعض كلماته، وتكرار بعض مقولاته وأوصافه، وهو أمر أربك بعض الفرنسين الذي اشتغلوا بترجمة رحلة ابن بطوطة[٢١].

وقد كان دخول العبدري مكة المكرمة يوم الثلاثاء اليوم الثامن من ذي الحجة سنة ٦٨٨ للهجرة النبوية

فقال العبدري واصفًا لحظة انكشاف شاخص الكعبة لعينيه.. وتَبدِّيها بحُلَلِها عليه:

"ثم نزل الرّكب بالمحصّب يوم الاثنين سابع ذي الحجة وبات به ليلةً، ثم رحل من الغد وهو يوم التروية إلى منى وفي يوم التروية..

دخلتُ إلى البلد الأمين مقر المجدِ الصميم والشرفِ المكين فخر بقاع الأرضِ كلّها على مر السنين، فأقسم بالله أعظم يمين قسماً لا يكذب ولا يمين ما حرم سكناه إلا ذو حظ غبين...

يا له مشهد شهد له التنزيل بالتفضيل، وسما عن أن يُقرَن بعديلٍ أو مثيلْ...

ما مال إليه أحدٌ بظُلم إلا والآفات عليه تميلْ، {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: ١]

بلد كأنّ نفوسَ الخلقِ عُجنت من طينته، فالخواطر مشغولةٌ بتصوير زينته؛ انزعج نحوه عقلٌ، طالما سار على هيئته، وابتذل بالسعي بدن نشأ على سكينته.. يقطع إليه ميلاً بعد ميلْ..

كم حوى من مآثر لا تُحدُّ.. كم ضم من مفاخر لا تُعدُّ.. كم به من أشعث دعوته لا تردُّ.. توده الدنيا وهو يعلم ما يودُّ.. مال عنها وهي للعقول تستميلْ..

حَرَمٌ لا يُهتك حماهْ.. شَرفٌ لا يُحط عُلاهْ.. علمٌ لا يُجْحَدُ هُداهْ.. من أمّه من قَفْرِ التّيهِ هداهْ.. ويُشْفي إنْ مَسح به العليل.. إنْ حلّه مُنَاد استقام منه ما أناد..

وإن رآه الصّعب سَلِسَ وانقاد.. يسلو به الفتى عما أَلِفَ واعتاد.. ويأمنُ مَكْرَ مَن مَكَرهُ أو كاذْ.

ويظلّ الخائف ما عليه من سبيلْ، وهو رَبْعُ السّلامةِ لارَبْعٌ بذي سَلَمْ.

كم فيه للهدى من رسمٍ وعلم.. كم جَبَر به من الدّينِ ما انثلم. كم أمّه بالقصدِ ناقصٌ فلم يلبث أن أُمِدّ بالتفضيلْ..

هنيئاً لمن أصبح به قاطناً، لقد ظَفِرَ بالُمنى ظاهراً وباطنًا، يكفيه فيه من محكم كتابنا {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: ٩٧] لا خُلْفَ فيه ولا تبديلْ.

ما عسى أن يَذكر العارِف ، ماعسى أن يَسرُد الواصف ، ما عسى أن يمدح السالفُ و الخالفْ، ما عسى أن يُنْقِصَ من البحر الغارِفْ، بَانَ العَجْزُ سواء أُقصر أمْ أُطِيلْ.

ليت شعري هل أعود إليه ثانية؟

ليت شعري هل تفك هذه النفس العانية؟

ليت شعري متى تَرْفَضُّ هذه الفانية؟

فتصبح الآمال بمكة دانية! وحبذا فيها المُعرَّس والمقيلْ . ألا ليتَ شعري هل يساعدُني الوقتُ

وتُدني لِيَ الأيامُ مانحوه تُقْتُ!!

وهل لي إلى تلك المعاهدِ عَوْدَةٌ

بِسُكنى مَغَانٍ قُرْبَها كُل ما اشتقتُ

مغانٍ حداني الشوقُ والوَجْدُ نَحوها

مُقيمًا فأعطيتُ المقادةَ والسـ‍ـــــــــــقتُ

وكنتُ على أنْ لا أُفارقَ رَبْعها

ولكنني من شُؤم ذَنبي عُوِّقْتُ

كأنْ لم يكنْ لي في المُحَصَّبِ منزلٌ

به من ضَنى جسمي وقلبي افْـــــــــــرَقـتُ

-إلى أن يقول- وقد كنت تجهزتُ للمقام بها حتى أشفي غليلاً.. وأتصفحها بالتأمل جُملةً وتفصيلاً.. فأزعجتِ الأقدارُ المانعة.. وزحزحت عن تَوطُّنها الأحداثُ الواقعة.. فلم يكن من وصفها إلا ما اختلس الطّرفُ منتبهًا.. وما اختطف اللحظ الذي غادر القلب ملتهبًا..

يواصل العبدري حديثه عن الكعبة ومكة إبّان رؤيته لها أول مرة:

إن مكة شرفها الله من عظيمِ آياتِ الله في الأرض الدّالة على عظيم قدرته، فإنّها بلد يَسبي عقول الخلق.. ويستولي على قلوبهم، ويتملّك رِقّها من غير سبب ظاهر، فالنفوس إليه نزّاعة من كل أرض، ولا يدخله أحد إلا أخذ بمجامع قلبه، مع عدم الدّواعي إلى ذلك، ولا يفارقه إلا وله إليه حنين، ولو أقام به على الضّنك سنين، ولا يمل سكناه، ولا تضيق النفس بلزوم مغناه، على أنّه بواد كما قال الله عز

وجل {بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ} [إبراهيم: ٣٧]، وأرضها جدبة كلها حجر، لا ماء بها ولا شجر...

وما فارقها أحدٌ إلا وفي نيته الرجوع إليها، وهذا أمر أطبق عليه السالفُ ممن رآها والخالف، واتفق عليه الموالف والمخالف.

ولا يخلو فكر من تصورها، ولا خاطر من توهمها، فهي نصب الأعين، وحشو القلوب حكمة من الله، وتصديقًا لدعوة خليل الله، يحضرها الشوق إليها وهي غائبة، ويدنيها وهي نائية، ويهون ما يتكلف إليها من المشاق وما يعامي إليها من العناء.

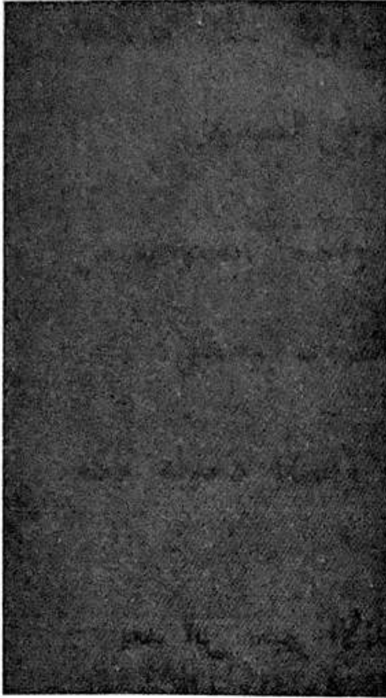
فكم من ضعيف يرى في الطريق إليها الموت عيانًا، ويبصر فيها الحيْنَ مشاهدةً، ويلقى فيها الردى مكافحةً، يطوي الليالي والأيام تطويه، وتتقاذف به الفلوات والبِيد، يسقط في كل مرحلة جزء من قواه، وينهدّ في كل منهلة جانب من جثته.

يُقْدِمِ على الردى وهو يشاهده، ويترامى إلى الفناء وهو يُعاينه، ببدن عَرَقَهُ الجَهْد وأضناه النَّصَب، وأدواه سموم الهَواجِر، وصَر البُكَر.

يُباشره الأذى من غير حائل، ويُنافِحه من غير جُنَّة. -إلى أن يقول- فما هو إلا أن يردّه امتداد الأجل إلى أرضه، ويرميه إلى

مسقط رأسه، حتى تراه مستعدًا لمثلها، مشيح العزم على الإقدام ثانيةً عليها، لم يثن عزمه ما كابد من البرحاء... كأنه لم يذق لها مرارةً، ولا رأى من دلائل نصبها أمارة، وهل هذا إلا صنع إلاهي، وأمر رباني[٢٢].

وهكذا يسكب العبدري روحه مع حروفه على هذه البلدة العظيمة وكعبتها الشريفة التي احتلت من فؤاده مترلاً، ومن روحه موقعًا، ومن نفسه موضعًا لاتبرحه وحبا لا تفارقه!!



وقضى الله برحمته لي بـــالجمع بين زيارة الخليل عليه الســلام، وزيارة المصطفى صلى الله عليـــه وسلم، وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد.

ابن جبير الأندلسي



يعد ابن جبير الأندلسي من أشهر الرّحالة من تلك الناحية وتعد رحلته نصًا أدبيا ومفخرة من لدن ذلك العقد من الزمان..

ففي أواخر القرن السادس وفد إلى أم القرى وبالتحديد في سنة ٥٨٣ للهجرة النبوية، وكان من العلماء المعروفين .

وما كان انطلاقه في الرحلة من المغرب إلى المشرق إلا أنه تسامع أنّ بيت المقدس قد تحرر من الصليبيين لذا جمع بين فلسطين والديار الحجازية لتأدية فريضة الحج.

ويقول هو بنفسه عن رحلته هذه: **وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام، وزيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد.**

وشهد لصلاح الدين الأيوبي بالصلاح والعدل ومن ذلك امتداحه بإزالة المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بمصر زمن العبيديين.

ويرى علماء الرحلات أن وصفه لمكة المكرمة والحجاز بعمومها من أدق الأوصاف التي سجلت عن مكة والحجاز في القرون الوسطى.

يقول ابن جبير رحمه الله في رحلته هذه واصفًا دخوله مكة واستمتاعه برؤية البيت العتيق:

"ودخلنا مكة والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنّا قناعه، والأصوات تصك الآذان بالتلبية، من كل مكان، والألسنة تضج بالدعاء، وتبتهل إلى الله بالثناء، فتارة تشتد بالتلبية، وآونة تتضرع بالأدعية،

فيا لها ليلة كانت في الحسن بيضة العَقْرِ، فهي عروس ليلي العُمرِ، وبِكر بنات الدّهرِ، إلى أن وصلنا حرم الله العظيم، ومُبرأ الخليل إبراهيم، فألفينا الكَعبة الحرام عروسًا مَجْلوة، مزفوفة إلى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن، فطفنا طواف القدوم.. ثم صلينا بالمقام الكريم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم، وهو بين الحجر الأسود والباب، وهو موضع استجابة الدعوة.

ودخلنا قبة زمزم وشربنا من مائها، هو لما شرب له، كما قال صلى الله عليه وسلم. ثم سعينا بين الصفا والمروة، ثم حلقنا وأحللنا.

فالحمد لله الذي أكرمنا بالوفادة عليه، وجعلنا ممن انتهت الدعوة الإبراهيمية إليه. وهو حسبنا ونعم الوكيل[٢٣]



وشاهدنا الكعبة الشريفة، زادها الله تعظيمًا، وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال، وترفل في برود الجمال، محفوظة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنة الرضوان.

ابن بطوطة



إذا ذُكرت الرّحلة ذكر ابن بطوطة، فهو عَرّابها الذي تضرب به الأمثال في الرحلة والمسير.. والكتابة والتحبير .. عن الأقاليم والبلدان.. وأوصاف هذا العمران.

إنّه الرحالة المغربي محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي الأمازيغي الشهير بن بطوطة.

ذلك أنّه في الربع الأول من القرن الثامن الهجري. وصل ابن بطوطة في رحلته التي جابت الآفاق إلى منطقة الحجاز.. وبيت الله الحرام .. فسجل مشاهداته التي زادت على ماسطره ابن جبير.. وتميزت

بالاستطرادات والتفاصيل الكثيرة والمعلومات الوفيرة عن هذه الديار المباركة الطاهرة.

بل إن ابن بطوطة حج سبع حجج، في أربع رحلات، وصام بمكة ثلاث رمضانات، مقيمًا مجاورًا للبيت العتيق. بهذا تحقق له ما لم يتفق لغيره، فجاشت نفسه عنها بما لم تجش به نفس غيره، لأنه أنست روحه بريّاها، وسعدت نفسه بمجاورتها وسكناها.

حتى قال بعض العلماء يصعب أن يكتب أحد عن مكة والكعبة المشرفة بمثل ما كتب ابن بطوطة

يقول ابن بطوطة رحمه الله:

فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين، مكة شرفها الله تعالى، فوردنا منها على حرم الله تعالى، ومبوأ خليله إبراهيم، ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ودخلنا البيت الحرام الشريف، الذي من دخله كان آمنا من باب بني شيبة، وشاهدنا الكعبة الشريفة، زادها الله تعظيمًا، وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال، وترفل في برود الجمال، محفوظة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنة الرضوان.

وطُفنا بها طواف القدوم، واستلمنا الحَجر الكريم، وصلينا ركعتين بمقام إبراهيم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الأسود، حيث يستجاب الدعاء، وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له، حسبما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا، ثم سعينا بين الصفا والمروة.

والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على البيت الكريم، وجعلنا ممن بلغنا دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم، ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة، والمسجد العظيم، والحجر الكريم، وزمزم والحطيم.

ومن عجائب صنع الله تعالى، أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبها متمكنًا في القلوب، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه، ولا يفارقها إلا أسفًا لفراقها، متولهًا لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناويًا لتكرار الوفادة عليها.

فأرضها المباركة نصب الأعين، ومحبتها حشو القلوب، حكمة من الله بالغة، وتصديقًا لدعوة خليله عليه السلام. والشوق يحضرها وهي

نائية، ويمثلها وهي غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقى من المشاق، ويعانيه من العناء.

وكم من ضعيف يرى الموت عيانًا دونها ويشاهد التلف في طريقها، فإذا جمع الله بها شمله، وتلقاها مسرورًا مستبشرًا، كأنه لم يذق لها مرارة، ولا كابد محنة ولا نصبًا.

إنه لأمر إلهي وقدر رباني، ودلالة لا يشوبها لبس، ولاتغشاها شبهة، ولا يطرقها تمويه، وتعز في بصيرة المستبصرين، وتبدو في فكر المتفكرين.

ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء، والمثول بذلك الفناء، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى، وخوّله خير الدارين الدنيا والأخرى، فحق عليه أن يكثر الشكر على ماخوله، ويديم الحمد على ما أولاه، جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته، وربحت في قصدها تجارته، وكتب في سبيل الله آثاره، ومحيت بالقبول أوزاره بمنه وكرمه.[٢٤]



إلهي هذا البيت بيتك جئتـــــه

وعادة رب البيت أن يكرم الضيفا!

فهب لي قِرى فيه رضاك، وإنني

من النار خوفي فلْتؤمنّي الخوفـــا!

خالد البلوي

خــالــد الــبــلــوي

الرّحالة خالد البلوي كتب الله له أن يزور الحجاز ويدخل إلى مكة المكرمة في أواخر القرن التاسع الهجري.

مع أن زيارة البلوي لمكة قصيرة إلا أنها كانت كافية لعبقري من العلماء مثله أن يسطر رحلته التي احتوت على جوانب مبدعة من العمران والاقتصاد والتاريخ والاوضاع العلمية والاجتماعية في الحجاز إذاك.

"**تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**" ذلك هو عنوان رحلة البلوي التي فرغ من تأليفها سنة ٧٦٨ للهجرة النبوية وكان قد بدأ بكتابتها في أثناء رحلته ثم نقحها من بعد.

ويعد بعض العلماء رحلته هذه محكًا مهما لرحلة ابن بطوطة لأنه عاصره إذ تجولا في ذات الأماكن من العالم الإسلامي.

يقول الرحالة خالد بن عيسى البلوي عن لحظة دخوله مكة ورؤيته للكعبة المشرفة:

وحين حمدنا السُّرى، وصلنا إلى أُم القرى، وعلمنا أننا أضياف الله، فدخلنا منه بأحسن القِرى، وتبدت لنا الكعبة الغراء في أستارها، وتجلت لنا المليحة في حلل أنوارها:

وضعنا جباهًا في الثرى قـــــــد تهللت

أساريرها منها وزاد سرورها

وطفنا بها سبعًا وزفت ظلالها

على خائف مثلي أتى يستجيرها

وحين وقع نظري عليها، ومثلت لديها، وأنشدت مرتجلاً بلسان الخضوع، وكتبت خجلاً بماء الدموع:

إلهي هذا البيت بيتك جئتـــــه

وعادة رب البيت أن يكرم الضيفا!

فهب لي قِرى فيه رضاك، وإنني

من النار خوفي فلْتؤمنّي الخوفـــــــا!

وأخذنا نطوف طواف القدوم، ونعرف ما لنا من الكرامة بموجوده على المعدوم، وقضينا الأنساك مهتدين في قضائها، مقتدين في شروع أدائها، وعدنا إلى البيت الحرام، نطوف به ونستلم، ونقبل أركانه ونستلم..

ونصبر عند تقبيل الحجر الأسود على الاصطدام والاضطرام.. نغتفر الزحام عند الورود على منهله، والمنهل العذب كثير الزحام، ونستنزل الألطاف، ونستلذ المقام بين الركن والمقام، ونشرب من ماء زمزم مايروي الأوام، ويبري السقام..

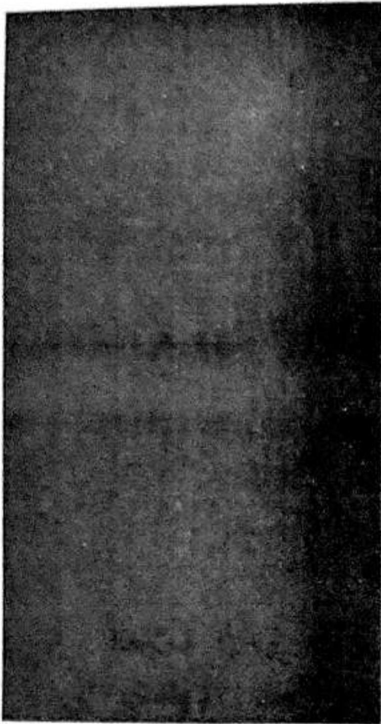
والقلب يتشبث بأهداب تلك الخيام، ويوطن نفسه دون بقية الجسد على المقام، والطرف يذؤف دموع المذنب الخاطئ، واللسان يردد لنجم الدين مهلل بن محمد الدمياطي:

يروق لي منظر البيت العتيق إذا

بدا لطرفي في الإصباح والطَّفـــــــــل

كأن حلته السوداء قد نسجت

من حبة القلب أو من أسود المُقل.(٢٥)



وأول نظــرة وقعــت إلى
جمال (الكعبة المكرمة) ذهلنــا
عن مصاعب السفر، ومشاقه
كلها

أمير بهوبال



العلامة الأمير ملك بهوبال صديق حسن خان القنوجي البخاري.. سطر مشاعره لحظة رؤية الكعبة في رحلته ومنسكه اللطيف الذي سماه **"رحلة الصديق إلى البلد العتيق"**.

وبدأ ذلك بذكر مبدأ تأجج مشاعر الشوق للبيت العتيق إذ تكرر عليه رؤية مكة المكرمة وكعبتها في منامه يحلم بها وبجبالها وصخورها فقال:

ورأيت البحر المحيط ومكة المكرمة والمدينة المنورة –زادها الله تشريفًا وتعظيمًا – مرارًا في النوم، فرأيت ليلة كأني ركبت البحر وقطعت المسافة، وبلغت مكة، ورأيتني كأني في مكان خال له أساطين فخام وأعمدة عظام وأنا جالس فيه، والمسجد الحرام كذلك، ورأيت مرةً، أخرى أني أدور وأتفرج في أسواق مكة وربوعها، وأمشي واختلف في

سككها، وهي طيبة الأرجاء، عامرة الخانات، كالبلاد المأهولة، ومكة المشرفة كذلك[٢٦].

ولما كتب الله تعالى للحلم أن يتحقق ركب الأمير البحر وأهواله ومخاطره من محلته بالهند "بهوبال" وذلك سنة ١٢٨٥ للهجرة النبوية قاصدًا بيت الله الحرام.

ورأو من أهوال البحر ومخاطره ما وصفه بقوله :

"وبلغت الأنفس التراقي في تلك الأيام، وكانت الأيادي إلى السماء مرفوعة...

(وحين وصل المركب إلى جدة) قال:

"والذي يحصل لنا من مسرة القلب وإشراق الوجه والحبور إذاك لا يعلم حقيقته إلا العليم بذات الصدور، كيف وقد وصلنا للمراد بعد شهرين غب اليأس ، وكنا نقول: يارب أقم سفينتنا على جدة"

لكنه حين أكمل مسيره إلى مكة والبيت العتيق .. بعد كل ذلك الإرهاق والجهد الجهيد يقول واصفًا رؤيته للبيت الحرام:

"وأول نظرة وقعت إلى جمال (الكعبة المكرمة) ذهلنا عن مصاعب السفر، ومشاقه كلها، كأنا لم نُشَك بشوكة في الطريق..

وهكذا شأن كل مشوق وصديق، كيف والكعبة الزهراء -زادها الله ضياء وسناء- ياقوتة كحيلة، تجلوا بصائر أعين الصلحاء، مجلوة للناظرين، في حلة من الكرامة سوداء.[٢٧]

وأخذت تبدوا جبال الحجاز للعين المجردة، فارتفعت الأصوات بالتهليل، والتسبيح والتكبير، وازداد ضجيج التلبية للعلي الكبير

أمير البيان

أمير البيان

وهذا أمير آخر نهنهته الأشواق للسير إلى عرصات عز الإسلام، ومأرز الإيمان مكة المكرمة.

فسار مع ركب الحجيج من ميناء السويس مع حجاج مصريين ومغاربة عدهم (١٣٠٠ حاج).

غير أنّه يقول عن مسير السفينة على البحر:

"سارت بنا الباخرة رهوًا ورخاء، لم نشعر فيها إلى جدة بأدنى حركة للبحر تزعج الراكب، إنما كان المزعج اكتظاظ السفينة بالراكبين، حتى لا يقدر أحد أن يمر من شدة الزحام.

وفي اليوم الثالث من مسيرنا ناوحنا ميناء رابغ ... أحرم جميع الحجاج الذين في الباخرة، وارتفعت الأصوات من كل جهة : "لبيك

اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك".

فاستشعر النّاس من الخشوع، في أثناء ضجيج الحجيج هذا ما اتصل بأعماق القلوب، وتغلغل في سرائر النفوس، وأحس الجميع أن البيت الذي يخلع النّاس تعظيمًا له أثوابهم - قبل الوقوف بعتبته بمسيرة يومين، ويشتملون في القصد إليه ما ليس فيه شيء من المخيط - لبيت مقدس.

لا يؤمه النّاس كما يؤمون سائر البيوت، وإنّه فوق بيوت الملوك، وفوق مقاصير القياصرة، وأواوين الأكاسرة، التي لا يحرم في الطريق إليها أحد، لا من بعيد ولا من قريب.

ومازال النّاس مستشعرين الخشوع تلك الليلة مواظبين على التلبية.. إلى أن انفلق الصبح، وأخذت تبدوا جبال الحجاز للعين المجردة، فارتفعت الأصوات بالتهليل، والتسبيح والتكبير، وازداد ضجيج التلبية للعلي الكبير، وخالط الهيبة والخشوع بالقدوم على البيت الحرام، الفرح والابتهاج بالوصول إلى أطهر بقعة وأقدس مرام...

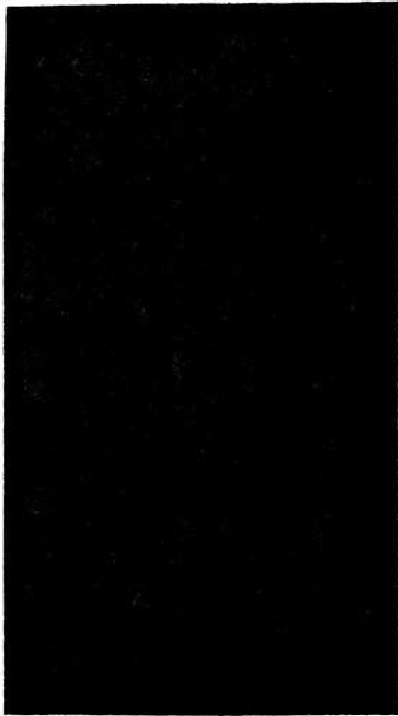
ولم تكن ترى إلا عيونًا شاخصة، ولا تحس إلا قلوبًا راقصة، والجميع متطلعون إلى سواحل الحجاز..

وفي جدة شاهدت جلالة الملك خادم الحرمين الشريفين، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود وكان في جدة ذلك اليوم، فوجدت فيه الملك الأشم الأصيد، الذي تلوح سيما البطولة على وجهه...

ركبت بدعوة من جلالة الملك ابن سعود إلى يساره في السيارة...وكان من شدة إشفاقه على الحجاج ...لا يفتأ ينتهر سائق السيارة كلما ساقها بعجلة خوفًا أن تمس سيارته جَملاً أو جَمّالاً...

وما زلنا نسير حتى دخولنا مكة، التي يحرم فيها الصيد... تشرفنا بدخول البلدة التي تشرفت بمولد محمد صلى الله عليه وسلم سيد الوجود، وبالبيت الذي طهره إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام للطائفين والعاكفين والركع السجود.

فقصدنا توًا إلى البيت الحرام حيث طفنا وسعينا وجأرنا ودعونا والله يتقبل الدعاء ويغفر الذنوب في ذلك المقام الكريم[٢٨].



ولا يوجد مثيل ولا شبيه للبساطة العظيمة لبناء الكعبة على وجه الأرض كلها

محمد أسد



وهنا أشواق غربية لاهثة قادمة من هناك لتلثم البيت الحرام وتقبل حجره وتطوف حول كعبته!

كتب محمد أسد في رحلته الشهيرة التي سماها "**الطريق إلى مكة**" وهي من عيون ماكتب في الرّحلة إلى مكة في هذا العصر.. وهو إلى ذلك مجاهد شارك بعد إسلامه مع عمر المختار، ولقي محمد إقبال، وعمل رئيسًا لمعهد الدراسات في لاهور.

إن ذلك الطفل "**ليوبولدفايس**" الذي كان يحلم جَدُّه النمساوي الأرثوذكسي أن يصبح حاخامًا؛ قدر الله أنّ جولاته في العالم الإسلامي حملته على أن ينطق الشهادة ويدخل الإسلام بعد إحباطاته المتتالية من

ديانته الأم "اليهودية" وإحباطات أخرى من ديانته التالية "النصرانية" وكان منظر صلاة المسلمين في القدس أول دهشة قادته بعد ذلك للإسلام.

لقد دق وصف محمد أسد لكل ما مر به في طريقه حتى ملابس النّاس وأشكال الأسواق ووصف الإبل ووصف اللهجات وأساليب التعبير والبيان.

يقول محمد أسد إبان وصوله لمكة:

لقد رتبت من جدة لكي نسكن في مترل مطوف مشهور في مكة اسمه "حسن عبيد" ..

وفي صبيحة ذلك اليوم

"خرجت – إلى الحرم– بعد إفطار غني قدمه لنا المطوف...

شعوب من جميع بقاع الأرض، وأزياء وتعبيرات متباينة، بعضهم بعمائم، وبعضهم عاري الرأس، بعضهم يسير صامتًا خافضًا وجهه ومسبحته في يده، وآخرون يركضون بحماس في الزحام.

خليط أجسام، بُنية صومالية في ملابس صارخة الألوان، وعرب من أعماق الجزيرة العربية... أوزبكيون من بخارى... بنات من جاوة بوجوه مكشوفة...مغاربة بالبرنس الأبيض... وأهل مكة بملابسهم البيضاء... فلاحون مصريون... هنود وهنديات بزيهن التلقليدية...الفولاتا السود من تمبكتو...

صراخ وزحام من كل ناحية، حتى تشعر أنك في قلب موجة عاتية... حتى وجدنا أنفسنا أمام باب من أبواب الحرم!!

ثم رأيت أول مرة الساحة الداخلية ... كانت مفتوحة أمام العين كالوعاء... في مركزها مكعب، تنزل عليه ستائر سود بحزام عريض مذهّب في أعلاها وعليه آيات من القرآن الكريم!

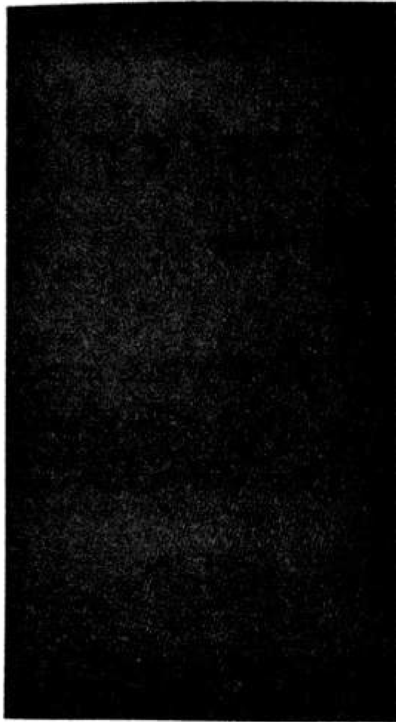
هذه هي الكعبة، موضع شوق ملايين النّاس، وتوقهم على مدى قرون طويلة ضحوا تضحيات عظمى في سبيل الوصول إليها؛ في الطريق إليها مات كثيرون، ووصل إليها كثيرون ممن يعانون الحرمان وشظف العيش، كان هذا المبنى المكعب غايتهم وأسمى أهدافهم...

لقد زرت مساجد وجوامع ومزارات إسلامية كثيرة رصعتها الأيدي الخلاقة بكل أنواع الفنون والأشكال...

رأيت كل ذلك. إلا أنني لم أشعر برهبة أمام أي منها كما أشعر بها الآن أمام الكعبة!!

لقد اقترب بانيها تمامًا من التعبير عن مفاهيمه الدينية في البساطة المطلقة للمكعب في التخلي عن كل ادعاء بشري للجمال الفني...!

هنا في الكعبة، يتحدث الشكل عن التخلي البشري عن كل ادعاء، ويتحدث عن التسليم لله؛ ولا يوجد مثيل ولا شبيه للبساطة العظيمة لبناء الكعبة على وجه الأرض كلها[٢٩].



تمنيت في طريقي للحج أن لا

يسبق إلى عيني في مكة شيء

قبل الكعبة!!

أبوعبد الله الحداد



تمنيت في طريقي للحج أن لا يسبق إلى عيني في مكة شيء قبل الكعبة!!

بتلك الأشواق الحرى سار الحاج أبو عبد الله الحداد الأمازيغي من صحراء أفريقيا إلى مكة المكرمة سنة ١٩٧٦م الموافق ١٣٩٧ للهجرة النبوية.

يقول أبو عبد الله:

منذ أن عزمت على الحج والعمرة والمسير إلى مكة قوظت عمود خيمتي الحَدث الذي قذف الحزن الشديد في صدر زعيم "**إمغاد**" إحدى قبائل الأمازيغ إذ ذاك وكان يدعى "**أخناء**" رحمه الله تعالى.

جهزت ظعينتي وبها أولادي وزوجي وخالهم.. وقلت لهم اسبقوني حتى أودع والدي وشيخ قبيلتي "أخناء"

وكان قد خرج من بين الناس حتى لا يودعني فلما رآني تضاعفت أحزانه وقال: ما أخرجني إلا الهروب من وداعك.. لا أطيق توديعك؛ لأنك قطعة مني.. وسقطت دمعتانا في نفس اللحظة.. عانقته وودعته وخرجت أهيم على وجهي!!

أسير على قدميّ وبيدي خطام ناقتي أمشي، أنا وهي ترفعنا وهدةٌ ويحطنا وادٍ وسهل، تسير معي تتهادى وكأنها شعرت بحزني وهمي.. لكنها مهما فعلت لن تستطيع أن تشعر بالصراع العظيم في داخلي بين أشواقي للكعبة وحبي التليد للصحراء وأهلها.

التقيت بأهلي حيث واعدتهم في مهامه الصحراء، وأكملنا طريقنا لجحيم المدن ووعود سماسرة الشركات السياحية التي تتلاعب بمساكين الصحراء الراغبين في المسير لأداء فريضة الحج.

وفي جهد دام سنةً كاملة في أفريقيا الجأتني الشركة السياحية سنة ١٣٩٨هـ لبعث ثلاثة من أبنائي: ولد وابنتان؛ تلك البنتين اللتين عبّرْتُ بهما منذ سنين على تعلق قلبي بمكة حيث أسميت إحداهن **"مكة"** والأخرى أسميتها **"جدة"**.

وكأن قدرًا ما ينتظر أولئك الأولاد في مكة المكرمة.

وعلى أمل أن أدركهم في الشهر التالي ودعتهم بالمطار وبالكاد أتماسك حتى لا أضعف بدمعةٍ أمام الأطفال.. والرجل يكره الضعف ويستعلي عليه!

لما دخل شهر ذو القعدة وصدق وعد الشركة السياحية أخيرًا، امتطيت الطائرة ومعي زوجي وطفلان بقيا معي.. وما أن استقرت الطائرة في السماء وبدأ الناس في الحركة فيها حتى بكى ابني على جارنا "آبلل" ان لم يركب معنا..! أشجاني بكاؤه وكلامه.. لكن لا وقت لذلك الآن.

وحين الوصول لمطار جدة.. أنزلونا من الطائرة ولا أدري كيف أصنع.. فأخذت ما معي من أوراق لاستكمال إجراءات الخروج من المطار، كنت اتخبط من حجرة لحجرة ومن شباك لآخر..حتى أنهيت كافة الإجراءات الرسمية.

واتجهت بعدها للبحث عن سيارة تقلنا صباحًا وفي أثناء تجوالي ذلك.. شعرت بدوار الإرهاق.. غبت إثره عن الوعي وما استفقت إلا في مشفى المطار عصرًا!

وفور إفاقتي ذهبت إلى حيث تركت أهلي... لم تتركني أشواقي للبيت العتيق أن أسال ماذا حدث؟

وجدهم حيث تركتهم.. وكعادتها أم عبد الله الصبورة لم تزعجني بأي سؤال بل استأنفت معي الحركة ..مرة أخرى للبحث عن سيارة – وفي ساحة السيارات– قلت لهم ليس لدي نقود، رق أحدهم لحالي وتفهّم موقفي؛ فأخذ مني أوراقي وشرع يبحث عن مندوب المطوف الرسمي فأعطاه أوراقي وبعد صلاة المغرب.. انطلقت السيارة إلى مكتب المطوف بمكة.. والذي تكفل مشكورًا بأجرة السيارة.. **وقال لنا أوصلكم للحرم؟؟**

فأومأت برأسي.. وأنا طرب جَذِلٌ..مبتسمٌ! مشيرًا له أن .. نعم!

والتفتُ لزوجي وأبنائي وقلت لهم هيا سنذهب إلى الحرم!!

لما وصلت للحرم.. بمعية المطوف ودخلت ساحته:

لمعت عيني..

ابتهجتُ..

فرحتُ..

تراقصتْ روحي بداخلي مما أرى!

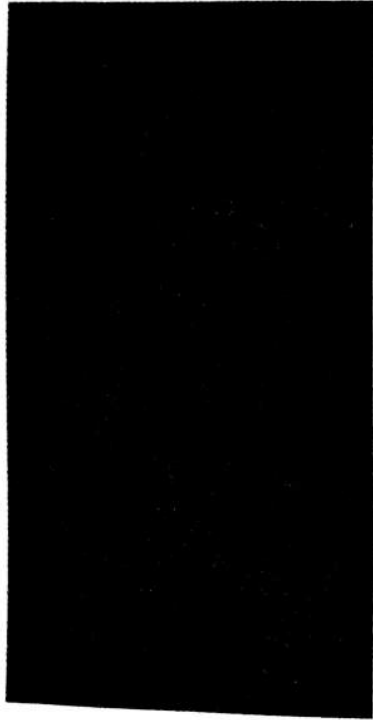
لّما نظرتُ للكعبة شعرتُ بلطفٍ إلهي عجيب باشر صدري وقلبي وكأنّه غسل صدري .. بل جميع جسدي.. بل غسل إرهاق عام كامل في طريق الوصول إليها..!!

ظللت لحظاتٍ مشدوهًا لا أعرف ما أقول.. ولا أدري ما أفعل .. هل أبكي.. أو أصرخ.. أو ماذا أفعل.. لم أتمالك أنْ ألقيتُ بجسدي على الكعبة أحضنها.. وأقبلها.. وألثمها..

سمعتُ تلك اللحظات صوت المطوف قائلاً: طوف ياحاج.. وما إن فرغنا من عمرتنا حتى أخذنا من عند الكعبة ولايزال الليل يلقي بسرابيله على الأرجاء..

وأمشي معه وأرقب أطفالي.. وأتسارق النّظر للكعبة كل مرة.. وساحتها الرائعة.. والحصباء التي تزين بعض صحنها..

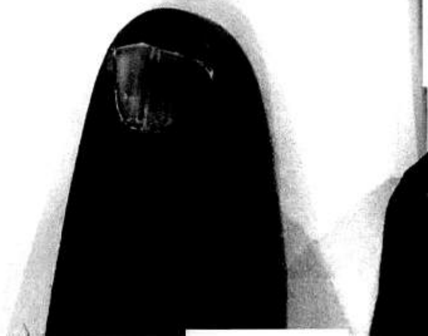
حتى خرجنا من مبنى المسجد الحرام.



اضمحلّ عندي كل دين
سوى الإسلام، فأسلمت
واغتسلت وأحرمت.

عبد المسيح





هذا أول ما ننقله في هذه الورقات عمن دخل لساحة الكعبة ورآها ولم يكن مسلمًا قبل.

حيث نقل أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن غلام يقال له عبد المسيح وكان نصرانيًا خبرًا عجيبًا .. وإليك نصه:

قال أبو الفرج: عن حامد الأسود صاحب إبراهيم الخواص، قال: كان إبراهيم إذا أراد سفرًا لم يحدث به أحدًا ولم يذكره، وإنما يأخذ ركوته ويمشي، فبينا نحن معه في مسجده تناول ركوته ومشى فاتبعته، فلم يكلمني حتى وافينا الكوفة، فأقام بها يومه وليلته، ثم خرج نحو القادسية، فلما وافاها، قال لي: يا حامد إلى أين؟ فقلت: يا سيدي

خرجت بخروجك. فقال: أنا أريد **مكة** إن شاء الله. قلت: وأنا إن شاء الله أريد **مكة**، فمشينا يومنا وليلتنا.

فلما كان بعد أيام، إذا شاب قد انضم إلينا في بعض الطريق، فمشى معي يومًا وليلةً لا يسجد لله عز وجل سجدة فعرّفت إبراهيم. وقلت:

إن هذا الغلام لا يصلي! فجلس وقال له :

يا غلام ما لك لا تصلي والصلاة أوجب عليك من الحج؟

فقال: يا شيخ ما عليّ من صلاة!

قال: ألست مسلمًا؟

قال: لا !!

قال: فأي شيء أنت؟

قال: نصراني.

فلم يزل يسايرنا إلى أن وافينا بطن مرّ.

فقام إبراهيم ونزع خلقانه، وطهرها بالماء ثم جلس.

وقال له: ما اسمك؟

قال: عبد المسيح.

فقال: يا عبد المسيح.. هذا دهليز مكة، وقد حرم الله على أمثالك الدخول إليه، وقرأ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ} [التوبة: ٢٨]

والذي أردت أن تستكشف من نفسك فقد بان لك، فاحذر أن تدخل مكة، فإن رأيناك بمكة أنكرنا عليك.

قال حامد: فتركناه ودخلنا مكة، وخرجنا إلى الموقف.

فبينا نحن جلوس بعرفات، إذا هو قد أقبل وعليه ثوبان، وهو محرم يتصفح الوجوه حتى وقف علينا، فأكبَّ على إبراهيم يقبّل رأسه، فقال له : ما وراءك يا عبد المسيح؟ فقال: هيهات. أنا اليوم عبده، والمسيح عبده. فقال له إبراهيم: حدثني حديثك!

قال: جلست مكاني حتى أقبلت قافلة الحاج. فقمت وتنكّرت في زيّ المسلمين كأني محرم، **فساعة وقعت عيني على الكعبة اضمحلّ عندي كل دين سوى الإسلام، فأسلمت واغتسلت وأحرمت**(٣٠).



هذا أثر الحرم في نفس المسلم، وهل في أماني المسلم أكبر من أن يرى تلك المشاهد!؟

علي الطنطاوي



وفي ضمن هذا السياق تجيء القصة التي رصدها الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله حيث يقول: كنت في مصر، من بضع سنين وكانت في الجامعة بعثة من الطلاب تستعد لتمضي إلى الحج، فعلق بها طالب يعرفه إخوانه شيوعيًا، فأبوا عليه الصُّحبة، فقلت للدكتور: أنا أرى أن تأخذوه معكم، فلعل الله قد أذن بصلاحه فبعث هذه الرغبة في نفسه؛ فاستبعد ذلك، لكنه مع ذلك أخذ برأيي، واصطحبوه معهم. ولما رجعوا، ولقيت هذا الأستاذ قال لي:

لقد كان ما قَدَّرَتَ، ولكنه كان شيئًا عجيبًا، دَهَش له كل من كان معنا، حتى الطالب نفسه، **فإننا ما إن بلغنا حدود الحرم ونزعنا ثيابنا؛ حتى تبدل نفسًا بنفس،** كأنما نزع مع الثياب دنياه كلها من قلبه، وأفكار السوء من رأسه، وترك الباطل الذي كان يحيا فيه، وعاد الفتى

المؤمن يجهر بالتلبية أكثر من جهرنا، ويخشع لها أشد من خشوعنا، فحسبنا ذلك تظاهرًا منه لنا، وتزلفًا إلينا...حتى إذا بلغنا باب الحرم، وبدت لنا الكعبةُ، غلبت عليه حال يستحيل أن تكون تصنعًا وتمثيلاً، وراح يبكي وينشَج؛ حتى لقد أبكانا، ثم كان أكثرنا طوافًا وصلاةً واستغراقًا في العبادة.

قلتُ – أي الطنطاوي –: هذا أثر الحرم في نفس المسلم، وهل في أماني المسلم أكبر من أن يرى تلك المشاهد، ويقف بتلك الأعتاب؟ فما مسلم يطوف حول الكعبة إلا أحسَّ أن وطنه الحقَّ ها هنا، لا البلد الذي ولد فيه، وشهد مدارج طفولته وملاعب صباه(٣١).



وفي الوقت الذي تنخفض فيه درجة الحرارة أجـــد ســـعادتي الكبيرة في الذهاب لتأمل الحرم الشريف

جيل جرفيه كورتلمون



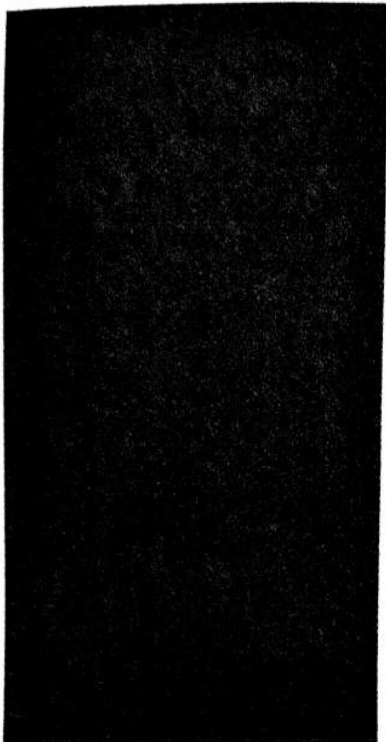
الرَّحالة الفرنسي جيل جرفيه كورتلمون يقول حين دخل مكة ورأى البيت الحرام:

في هذه الرّحلة التي لا تصدق وفي هذه المدينة الغامضة، حيث أجد نفسي فيها كما لو كنت أعيش معجزة.

أستحضر أحداث الليل أمام عيني، فأرى السّراب، وهلوسات سِنة النوم والحيرة من المجهول التي تخنقني كلما اقتربت من سور الحرم الشريف، وقد فارق النوم عيني .. لم أغمض جفني منذ ثلاث ليال، عشتُ خلالها فيضًا من الانطباعات التي لا أجد لها معنى ... تستحضر ذكرياتي أدقّ ذكريات هذه الأيام التي قضيتها في هذه

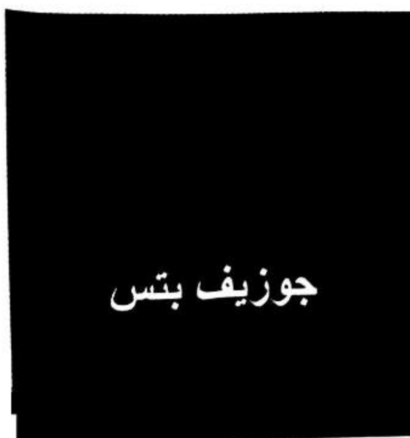
المدينة الخارقة، بعيدًا عن عالم الأحياء تقريبًا، كأنني نزعت رداء حياتي العادي لأغرق في نوع من السبات الروحي.

وفي الوقت الذي تنخفض فيه درجة الحرارة أجد سعادتي الكبيرة في الذهاب لتأمل الحرم الشريف ... أستمتع بسماع صوت المؤذنين منادين للصلاة ... ولا يمكن أن يتصور المرء وجود نغمات إنسانية أكثر دفئًا وانسجامًا وقوّة وعذوبة من الأذان، يالروعة المشهد)[٣٢].



وكان يتملكني إعجـــاب شديد بقوة إيمـــان هـــؤلاء الحجاج وخشوعهم أثنـــاء أداء الطواف والسعي.

جوزيف بتس

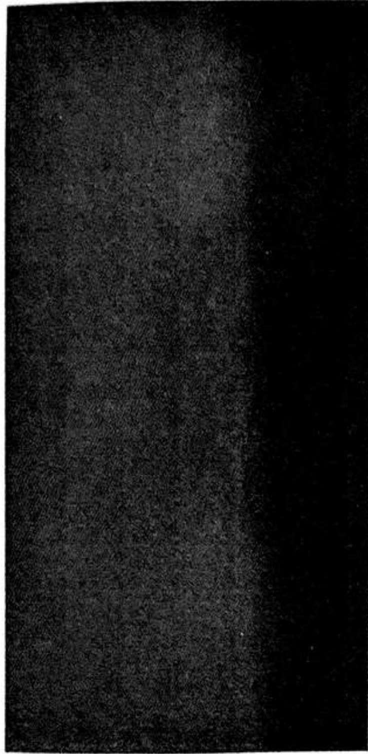


وكذلك الرحالة الإنجليزي (**جوزيف بتس**):

حيث قسره سيده على الإسلام فأخذه للحج[٣٣] قال واصفًا أثر الكعبة على نفسه وعلى نفوس الحجاج:

فدخلنا المسجد الحرام من باب السلام، وعندما وقع نظر الحجاج لأول مرة على الكعبة فاضت الدموع ...

وكان يتملكني إعجاب شديد بقوة إيمان هؤلاء الحجاج وخشوعهم أثناء أداء الطواف والسعي، ولم أستطع أن أكبح دموعي لِما رأيت من عواطف الحجاج)[٣٤].



وشعرت حين قبّلت الحجر
الأسود أنّ شفتيّ ترتاحـــان
لذلك!

دومنجو باديا ليبليخ



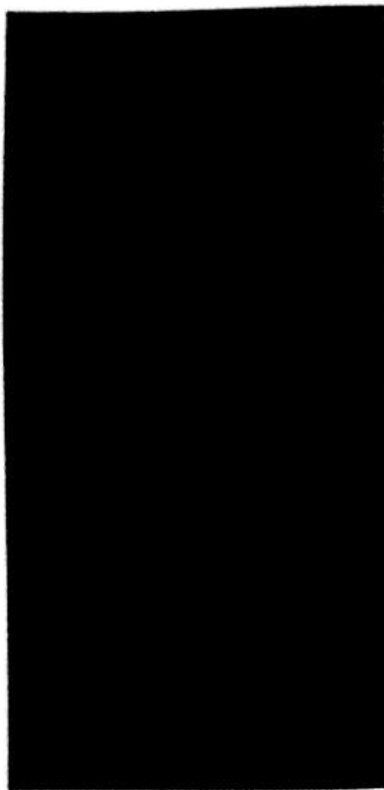
والرّحالة الألماني **(دومنجو باديا ليبليخ)**

الذي تسمّى (علي باي العباسي)

يقول في وصف شعوره حين تراءى له منظر الكعبة:

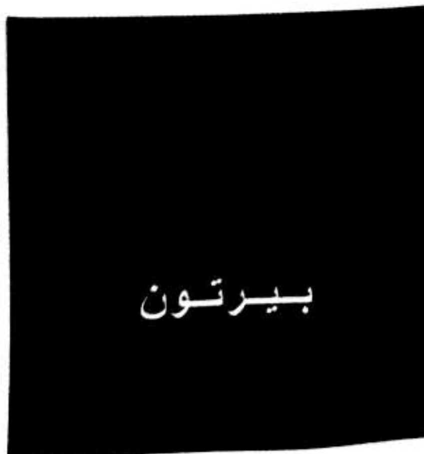
وكان منظرًا خاشعًا، ومؤثرًا ...

وشعرت حين قبلت الحجر الأسود أنّ شفتيّ ترتاحان لذلك)[٣٥].



لا أحد أعمق مشاعر من
الحاج القادم من الشّمال!

بيرتون



والرّحالة الإيرلندي (**بيرتون**) الذي تظاهر بالإسلام[٣٦] حتى دخل مكة

يقول عن تأثره وتأثر الحجاج بمنظر الكعبة وطوافهم حولها:

المنظر أمامي غريب وفريد، وكيفما نظرت لهذا البيت المقدس يمكنني أن أقول بصدق إنّ من بين كل المؤمنين العابدين المتعلقين بأستار الكعبة الملصقين صدورهم على جدرانها باكين، لا أحد أعمق مشاعر من الحاج القادم من الشّمال .. أما بالنسبة لي فقد أحسست بانجذاب صوفي وإحساس بالرضى[٣٧].



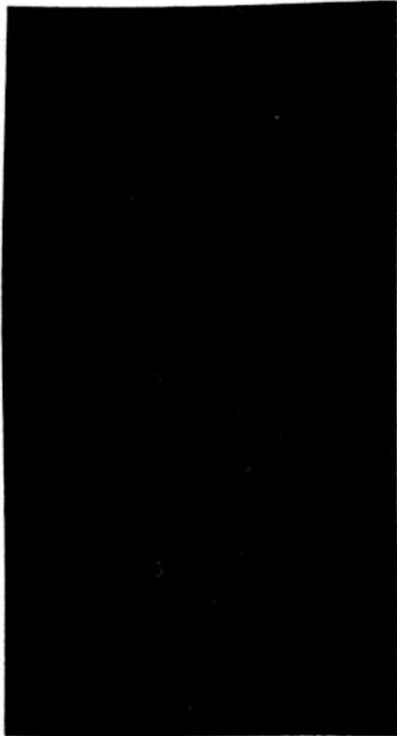
خلّف المشهد كله انطباعًا لم أشعر
بشيء منه قط في أي مسجد آخر

أولريخ ياسبر سيتزن



وكان الرّحالة **(أولريخ ياسبر سيتزن)** الذي تسمى بالحاج موسى قد تحدث عن نفسه عند دخوله مكة بصحبة صديقه من أهل جدة التاجر عبد الله السّقاط، قال: **تخيل منطقة مدورة تحيط بها ثلاثة أو أربعة صفوف من أعمدة المرمر. خلفها مجموعة قليلة من الأبنية الصغيرة. هذا هو مشهد هذا المسجد المقدس. من حوله ترتفع المنازل على شكل طبقات، وفوقها التلال، وبذلك تتصور نفسك في مسرح روماني مهيب، ميدانه الساحة العظيمة للمسجد.**

خلّف المشهد كله انطباعًا لم أشعر بشيء منه قط في أي مسجد آخر[٣٨].



...لم يوجد ولا رجل واحد

لم ينادِ بأعلى صوته "لبيك"

تخرج من أعماقه!

أينريك فريهير فون



وكذلك الرّحالة الألماني (**أينريك فريهير فون**) الذي تسمى بسيدي عبد الرحمن السكيكدي، حيث قال حين دخل مكة مع وفد الحجاج أول مرة قبيل الفجر، يصف مهابة البيت العتيق، وأثره عليهم عند دخولهم لساحته:

لم يوجد ولا رجل واحد لم ينادِ بأعلى صوته "لبيك" تخرج من أعماقه ...

في هذه اللحظة المقدسة خرَّ كثيرون على ركبهم رافعين أيديهم بلهفة نحو الكتلة السوداء - يعني الكعبة - وألقى آخرون بأنفسهم على الأرض ساجدين يقبلون رمال الصحراء بحماسة شديدة، أطلق الجميع العنان لعواطفهم وحماستهم بكل وسيلة متاحة ..

كان بالتأكيد مشهدًا لم يكن ليرى خارج مكة(٣٩).

شعرت بعظمة الله تعالى

وأنا أمثل أمام الكعبـــة

المشرفة!

جيا وان غيي

ذاك صنيعهم فما أنت..

تلك مشاعرهم.. وهاتيك عباراتهم.. ممزوجة بعبراتهم..

هل يهزك منظر الكعبة بصدق مثل ما يفعل بهم.. هل تحملك الأشواق لركوب الأهوال.. وتكلف ماليس عندك من أموال.. حتى تحط رحلك بساحة الكعبة.. وميدان فيوض الرحمة.

لا يهم إن كنت مكيًا أو تقطن خارجها.. لأن تجدد عظمتها لا يعترف بالقرب والبعد.. حين يصادف قلبًا صادق الحب.. مشبوب المشاعر ونفس تواقة وروح لا تهنأ إلا حين تتفيأ ظلال القداسة في باحة الكعبة المشرفة..

نَفسٌ حين ترى الجموع المتقاطرة تغبطهم فتعزم على أن تشاركهم،
تنّزل الرحمات والتعلق ببيت رب البريات.

لا أدعي استقصاء أخبار عشاق الكعبة فذاك محال، لأنه عشق قُذف في قلوب العباد منذ نادى إبراهيم عليه الصلاة والسلام.. لكن حسبي الإشارة إليه.. ولعل الله يكتب لي إلحاقه بمجموعة أخرى من أصحاب الشدهة الأولى.. والدهشة المسطرة في قلوب أصحابها قبل سطور كتبهم.

جرب أن تجلس في أروقة الحرم المكي لحظة تدفق تلك الجموع.. ستجد مثل الحاج المصري الذي كان إذا دخل إلى ساحة الكعبة ورآها عقرت به قدماه.. وجثا على ركبتيه لحال تلزمه من مهابة الكعبة ولم يزل كذلك حتى تمكن من الطواف بعد اليوم الثالث من محاولاته(٤٠).

وسترى مثل الحاج عبد الرحمن وزوجه فاطمة اللذان تعاهدا على المسير إلى البيت العتيق.. وبعد مرور ثمان وأربعين سنة على تراكم تلك الأشواق منّ الله عليهما بالمثول أمام الكعبة بعد أن احدودب الظهر وخارت القوى.. لكن مشاعر الشوق للكعبة لم تشخ ولم تهرم فلا

تزال في عهد فتوتها مشبوبة تهز كل ضلوعه وتجري الدمع مدرارًا في محاجره.

قال حين رأى الكعبة: **منظر الكعبة جعلني أشعر أن لحظة رؤيتي لها هي الميلاد واستئناف رحلة التعبد لله.. جعلتني أشعر أني أسلمت للتو وأن جسدي عادت إليه أنفاس الشباب فأكملت عمرتي على قدميّ - ولم يتوقع الفوج الذي كنت معهم ذلك- بل وكنت أعدو بين الصفا المروة، في الوقت الذي كان الصمت ولغة الدموع هو لسان زوجي فاطمة وهي تسير في شيخوختها ببطء نحو الثمانين**(٤١).

وستجد مثل الحاجة أمينة التي طلبت من والديها أن يلقباها أم القرى لتعلقها بالكعبة والبيت الحرام وهي طالبة في المرحلة المتوسطة.. ومع تقدم العمر كادت تفقد أمل اكتحال عينها بالكعبة ولا أمل لها إلا لزومها الدعاء في سجادتها في جنح الليل أن يسكنها الله مكة حتى تموت بها..

فلما أذن الله لها بعد أكثر من ثلاثين سنة من بدء دعائها وقفت أمام الكعبة.. فما استطاعت بادئ الأمر أن ترى شاخصها بهدوء

لعظيم غزير الدمع الذي ملأ عينها حتى انتفخت ولم تعد ترى الكعبة أو تكاد[٤٢].

وستجد مثل الحاج الصيني: "جيا وان غيي" الذي يقول في محطة تلفزيونية عن تذكره للحظة رؤيته للكعبة:

نحن في الصين بعيدون عن الكعبة، ولهذا لما رأيت الكعبة للمرة الأولى تأثرت كثيرًا، وبكيت كثيرًا – كان يخلط دموعه بحروفه- وهو يسرد قصة مثوله أمام جلال الكعبة المشرفة..

يقول: كنت في الصين أدعو الله أن أرى الكعبة فأردد بصوت مرتفع، وأقول يا الله : أنا بين يديك، اصدر أوامرك يا الله لأمثل أمام الكعبة.

لقد شعرت بعظمة الله تعالى وأنا أمثل أمام الكعبة المشرفة، جاشت نفسي بالرغبة في قراءة القرآن الكريم، بل وتطبيق كل تعالم الإسلام، وتكريس حاتي كلها لدين الإسلام[٤٣].

تمت بحمد الله تعالى.

و أسال الله تعالى أن يكتب لي شرف إلحاق هذه المجموعة بأخرى من أخبار أصحاب الشدهة والدهشة أمام محط أشواقهم الكعبة المشرفة.

....

وتبقى الكعبة المشرفة، أكبر من وصف المؤلفين،
وعبارات المشتاقين، على مر السنين.
والحمد لله رب العالمين.

الحواشي و المصادر

(١) وقد أكرمني ربي فأجريت دراسةً ميدانيةً عن الأثر النفسي لشعائر ومشاعر مكة المكرمة على الحاج ودورها في تعديل سلوكه سنة ١٤٢٩هـ على حجاج الداخل في إحدى حملات الحج، فظهرت نتائج مبهرة، كشفت عن أثر عظيم لتلك الشعائر على نفوسهم وسلوكهم، أسال الله تعالى أن ييسر ظهوره قريبًا وكنت أسميته "وهج الشعائر"

(٢) انظر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (١٤٠٧هـ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريان، القاهرة مصر (٤٠٦/٦) وصحح إسناده.

(٣) ابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل، ١٤٢٠هـ تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر، الرياض السعودية (٢٢٦/٣).

(٤) بن نبي، مالك،(٢٠٠٩)، لبيبك حج الفقراء، مكتبة الأسد، دمشق سوريا. (ص٢٨).

(٥) صحيح ابن حبان(٩/ ٦)

(٦) ابن قيم الجوزية (١٤٢٧هـ) بدائع التفسير، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية (٥٠٦/١).

(٧) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩) .

(٨) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

(٩) أخرجه الترمذي (٩٥٩) واللفظ له، وقال: "حسن"، والنسائي (٢٩١٩)، وصححه ابن خزيمة (٢١٨/٤)، والحاكم في المستدرك (٦٦٤/١)، والألباني في مشكاة المصابيح (٢٥٨٠).

(١٠) ابن قيم الجوزية (١٤٠٩هـ) زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان (١/٥٢،٥١).

(١١) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

(١٢) مما جاء في الباب، حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يرفعه (لاتقوم الساعة حتى لا يحج البيت).رواه أبو يعلى (٢/٢٧٧) وابن حبان (١٥/١٥١).والحاكم (٤/٤٥٣)، وقال:" حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه

(١٣) حسّنه الألباني، انظر: صحيح وضعيف سنن ابن ماجة للألباني ٦/ ٤٦٢

(١٤) نقل ذلك أهل السير انظر: الحافظ بن كثير (٣/٥٤٤): و إن رسول الله صلى الله عليه و سلم ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل. وانظر سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/٢٥٦)، وانظر الروض الأنف للسهيلي (٤/١٥٩)، وانظر قبل ذلك كله سيرة ابن هشام (٢/٤٠٥).

(١٥) صحيح سنن الترمذي للألباني (حديث رقم ٣٩٢٥)

(١٦) مسند أحمد ط الرسالة ٤١/ ٧٩

(١٧) سبق عزو النص

(١٨) رواه الطبراني في الكبير (١٢٢٨٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب(١١٢٧)

(١٩) رحلة القلصادي، لأبي الحسن علي القلصادي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٨م، (ص١٣١ – ١٣٢). وانظر كذلك الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة في العصور الوسطى لإبراهيم أحمد سعيد من

مطبوعات دار الأوائل بدمشق ٢٠٠٤ . قدمت هذا الرحالة لفضل رحلته علي إذ هي التي نبهتني لفكرة هذه الورقات

(٢٠) ملء العيبة بما جُمع بطول الغَيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطَيبة، لمحمد بن عمر بن محمد ابن رشيد الفهري السبتي، دار الغرب الإسلامي، تحقيق الحبيب الخواجة (١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م)، (٨٤/١)

(٢١) انظر: رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة لعبد الهادي التازي، من مطبوعات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي١٤٢٦هـ(٨١/١).

(٢٢) رحلة العبدري، لأبي عبد الله العبدري، دار سعد الدين للطباعة والنشر دمشق سوريا الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ تحقيق علي كردي، تقديم شاكر الفحام (ص٣٥٨ – ٣٦٧).

(٢٣) رحلة ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي الشاطبي البلنسي، دار صادر بيروت لبنان، (ص٥٨).

(٢٤) رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لشمس الدين محمد بن عبد الله الشهير بابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، من مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ (٣٦٧/١-٣٦٨).

(٢٥) رحلة البلوي المسماة: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، لخالد بن عيسى البلوي الأندلسي، من مطبوعات اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطلعة فضالة المحمدية، المغرب، تحقيق العلامة الحسن السائح (١٠١/١).

(٢٦) رحلة الصديق إلى البلد العتيق وزارة الشئون الإسلامية بدولة قطر٢٠٠٧ (ص٧)

(٢٧) المصدر السابق (ص١٦٥)

(٢٨) الرحلة الحجازية المسماة الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، أمير البيان شكيب أرسلان، دار النوار ٢٠٠٧ ص٣٩ - ٤٨

(٢٩) الطريق إلى مكة، محمد أسد، من مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز ١٤٢٥هـ تقديم الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين، رئيس شئون المسجد الحرام والمسجد النبوي (ص ٤٦٥ - ٤٩١)

(٣٠) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، عبد الرحمن بن الجوزي (١٤١٥هـ)، دار الراية، الرياض السعودية، تحقيق مرزوق إبراهيم.(١٨٢/٢-١٨٤).

(٣١) من نفحات الحرم، علي الطنطاوي(١٤٠٠هـ) ، دار الفكر، بيروت لبنان (ص٧-٩) بتصرف.

(٣٢) رحلتي إلى مكة، جيل جرفيه كورتلمون،(٢٠٠٢م)، ترجمة محمد الحناش، دار التراث الرياض السعودية (ص٧٥).

(٣٣) المختار من الرحلات الحجازية، الشريف محمد بن حسن عقيل (١٤٢١هـ) ، دار الأندلس الخضراء، جدة السعودية (٣٢٧/١).

(٣٤) الرحلات المحرمة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، محمد أحمد محمود،(١٤٣٠هـ)، ضمن سلسلة جمهرة الرحلات الجزء٣، مطبعة المحمودية، (ص٣٩).

(٣٥) المصدر السابق (ص٦٣).

(٣٦) المختار من الرحلات الحجازية (٤٠٧/١) مصدر سابق.

(٣٧) الرحلات المحرمة ص١٥٠، مصدر سابق.

(٣٨) المصدر السابق (ص١٢٠).

(٣٩) المصدر السابق (٢٢٢).

(٤٠) حدثني بالقصة أحد سكان مكة ممن عاصرها وعاينها.

(٤١) أخذت القصة من الحاج مشافهة في الحرم المكي، كان من حديثه أنه يتعجب كيف تشتاق هذه الملايين من البشر لحجر، يقول لولا ماقذف الله في قلوب الناس تجاه الكعبة لقلنا إننا نفهم أن يشتاق بشر لبشر لكن أن تشتاق لحجر هذا يعني أن ههنا سرًا فوق طاقة البشر أن يدركوه.

(٤٢) https://www.facebook.comL.guiri?fref-pb&hc_ ta.

(٤٣)-http://www.hottubandspahq.com/hammam
html?ytid-HJmW7hoa5Q0&qs-Hammam. وانظر لمجموعة ممن رأى الكعبة للمرة الأولى من سويسرا http://qmusica.info/9xGmziNI6kU/100-1434/